

باب الزكاة من الإسلام

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد: فإن الله -تعالى- خاطب هذه الأمة باسم الإيمان يناديهم بقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } ويقول: ابن عباس -رضي الله عنه- وابن مسعود إذا سمعت الله -تعالى- يقول: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فأرعاها سمعك أو فأصغ لها سمعك فإنها هو خير تؤمر به أو شر تنهى عنه. من ذلك قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رِعَايَةً وَفُؤُولُوا انظُرْنَا } هذا تاديب من الله للمؤمنين، خص بذلك المؤمنين { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } . ومن ذلك قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } الخطاب لكل مؤمن كل المؤمنين المراد الذين عرفوا صحة نبوة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وصدقوا ما جاء به ووجدوا الله التزموه بتوجيه ناداتهم الله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } ومن ذلك قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاسْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } الخطاب لكل المؤمنين المتقدمين والمتأخرين كل المؤمنين يقال لهم يا مؤمنون { كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } هذا يعم جميع المؤمنين. ومن ذلك قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ } -يعني- فرض عليكم ... { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ } الخطاب لكم أيها المؤمنون؛ وكذلك قوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً } أي ادخلوا في الإسلام الخطاب لكم أيها المؤمنون وهكذا مثل قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مَا كَسَبْتُمْ مَا كَسَبْتُمْ } الخطاب لكم أيها المؤمنون أنفقوا واعقدوا قوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا } وكذلك { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَابَرْتُمْ يَدِينُ إِلَىٰ أَحْسَنِ مَقَامٍ وَأَكْبَثُوهُ } . هذه آيات من سورة البقرة افتتحها الله بالخطاب للمؤمنين والآيات كثيرة في بقية السور يخاطب الله -تعالى- فيها المؤمنين يقول بعض العلماء: إن الخطابات في السور المكية جاءت بـ (يا أيها الناس) وذلك لأنها خطاب للناس جميعا وبـ (يا أيها الذين آمنوا) في السور المدنية لأنها خطاب لمن دخل في الإيمان لمن آمن من هذه الأمة ولا شك أن المؤمنين هم الذين يقبلون وهم الذين يلتزمون فيقال لهم: إنكم قد أمرتم بكذا وكذا فعليكم الامتثال إذا أمركم الله بأمر فافعلوه إذا كنتم مؤمنين؛ من المعلوم أنهم إذا كانوا مؤمنين فإنهم يلتزمون بقولهم سمعنا وأطعنا سمعنا وطاعة لكلام الله وأمره وذلك لأنهم آمنوا بإيمانا صادقا، ولذلك أخبر الله عنهم قال تعالى: في آخر سورة البقرة: { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ } أي والمؤمنون آمنوا بما أنزل إليه من ربهم { كُلِّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ } كلهم آمنوا بالله وربا وخالقا ومعبودا يقولون آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله وأما برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأمنوا بالكتب المنزلة لأن فيها شرع الله فأمنوا بها واعتقدوا بالله والله وأنه الذي شرعها وأنه الذي أمر بما فيها وأن ما فيها لا يحق بحقه قوله. وأمنوا باليوم الآخر واستعدوا له وأمنوا بالملائكة وصدقوا ما جاء عنهم من الصفات وأمنوا بالكتب المنزلة السابقة فكل ذلك داخل في قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } يا أيها المؤمنون بالله؛ يا أيها المؤمنون بكتابه؛ يا أيها المؤمنون برسوله؛ يا أيها المؤمنون بملائكته؛ يا أيها المؤمنون بالمعاد والبعث بعد الموت؛ افعلو ما أمرناكم به؛ وقد ذكر الله -تعالى- خصال الإيمان فذكر منها خمسة في سورة البقرة في قوله تعالى: { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ } . ذكر أربع خصال آمن بالله والملائكة والكتب والنبين فجعل هذا كله من خصال الإيمان { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } يعني البعث بعد الموت والملائكة يعني وأمن بالكتب وأمن بالنبين يعني بما أنزل على النبيين فهذه خمسة أركان من أركان الإيمان لا يتم إلا بها فمن أيها فممن بها فإنه يكون من أهل السعادة ويكون مطيعا لله -تعالى- ومتعبا لما جاء عنه. وأما من ترك أو جحد شيئا منها فليس بصادق الإيمان أو ليس بكامل الإيمان فمن جحد البعث بعد الموت فقد كفر وذلك لأن الله -تعالى- أكد في مواضع كثيرة وأقسم عليه في ثلاث آيات من القرآن الآية الأولى: في سورة يونس قال الله تعالى: { وَبَشِّرِ بُنْتُكَ أَنَّكَ أَخْبَرْتُ هُوَ لَأُبْرِيءُ وَإِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ } أقسم بربه أي احلف لهم بربك أنه حق يعني أن البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال حق وصدق لا خلف فيه هكذا أمره في هذه الآية بالحلف. وفي سورة سبأ يقول الله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ } أقسم بربه أن الساعة آتية كما قال الله تعالى لموسى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُحْضِيهَا } الساعة يعني وقتها وقيامها فأخبر بأنها آتية وأمره بأن يحلف بربه لما قالوا { لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ } . الموضوع الثالث: في سورة التغابن { رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ كُرِبَ نَزِيلُهُمْ لَأُولِي الْأَرْبَابِ فَأُولَئِكَ سَبُّوا رُسُلَهُمْ } أمره بأن يحلف بربه لما ذكروا أنهم لا يبعثون وأن من مات منهم فإنه لا يعود ولا يعود إلى الحياة فأمره بأن يحلف بربه { قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُنْعِنُنَّ ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } فالإيمان بالبعث بعد الموت وباليوم الآخر أحد أركان الإيمان لا يتم إلا به ومن كذب بالبعث كفر وذلك لأنه كذب خبر الله حيث أخبر في آيات كثيرة بأنكم معوثون ومحاسبون بأعمالكم وحجوزون بما إن خيرا فخير وإن شرا فشر كثيرا ما يرد قرن الإيمان بالله باليوم الآخر يقتصر على ركنين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر. جاء ذلك في عدة أحاديث مثل قول النبي -صلى الله عليه وسلم- { من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم صيفه؛ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره؛ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت } اقتصر على ركنين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ومثله قوله -صلى الله عليه وسلم- { لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج } اقتصر على الإيمان بالله واليوم الآخر. وقال -صلى الله عليه وسلم- { لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم ولبلة إلا مع ذي محرم } ذكرها بالإيمان بالله واليوم الآخر. وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة يقتصر على الإيمان بالله واليوم الآخر؛ وذلك لأن الإيمان بالله يدخل فيه بقية أركان الإيمان؛ فيدخل فيه الإيمان بوحدة الله -يعني- يدخل فيه الإيمان بأن الله -تعالى- واحد أحد؛ ويدخل فيه الإيمان بعبادته أي أنه المستحق للعبادة يؤمن بأنه هو المعبود وحده والمدعو والمرجو والمحبوب والمتوكل عليه وحده؛ ويدخل فيه الإيمان بأسمائه وصفاته وإن له الأسماء الحسنى والصفات العلى. ويدخل فيه الإيمان بأحكامه بأنه الذي أمر ونهى والذي حكم وعدل؛ ويدخل فيه الإيمان بأمره ونهيه ووجوب امتثال الأمر واجتناب النهي فمن أين الله عبده وأطاع رسله واتباع شرعه واستعد للقاءه وصدق وقبل كلامه وعمل بما فيه وأطاعه ولم يعصمه؛ ومن آمن باليوم الآخر -صلى الله عليه وسلم- يصدق بما فيه تصديقا قويا فإنه يستعد للقاءه بعمله للأخرة؛ يعمل لما بعد الموت لأنه يصدق بأنه يعذب أو ينعم في قبره وصدق بأنه أيضا يُبعث بعد موته ولو تفرقت أشلائه ولو أكله الدود ولو أكله التراب ولو صار رميما يعينه الله ويعيده حيا كما كان. وصدق بيوم القيامة وأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين وأنهم يجتمعون في ذلك اليوم كلهم يُسمعهم داعي وينفذهم البصر؛ وصدق أيضا بأنه يجازي كل عامل بعمله فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين بما يستحقون كما قال الله تعالى: { لَيَجْزِي الَّذِينَ آسَأُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَاتِ } وصدق بأنه -صلى الله عليه وسلم- وأعداءه النار؛ وصدق بالبليز وما فيها مما أخبر الله -تعالى- من العذاب الشديد كقوله تعالى: { سَوْفَ نُضَلِّهِمْ أَتَارًا كَلِمًا تَضِحُّ جُلُودُهُمْ يَدَّبُّوْنَ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ } وفي قوله تعالى: { كَلِمًا حَبِثَ رِذَائُهُمْ سَعِيرًا } وما فيها من الشراب الحار شديد الحرارة قال تعالى: { وَأَنْ يَسْتَعِينُوا يَغَاثُوا بِمَاءِ كَأَلْمُهْلِ يَصَوُّوْنَ الْوُجُوهَ } { يَغَاثُوا بِمَاءِ كَأَلْمُهْلِ } (المهل) هو دردي الزيت -يعني- حنائه وأنه يشديد الحرارة { يَتَّبِعُوا الْوُجُوهَ } إذا قره إلى وجهه من شدة حره انشوى وجهه وإذا شرهه يقطع أمعاءه. كما في الآية الأخرى يقول الله تعالى: { وَشَقُوقًا مَاءٍ حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَعْقَابَهُمْ } (حميما) -يعني- شديد الحرارة؛ وكذلك ما فيها مما ذكره الله في قوله: { حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا } وصدق بالجنة وما فيها من النعيم الذي ذكره الله مثل قوله تعالى: { قَلَّا نَلْمُ تَنْفُسًا مَا أَهْبَيْ لِهَمْ مِنْ قُرَّةٍ لَعِينٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ومثل قوله تعالى: { وَفِيهَا مَا تَشْتَهيه الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }؛ وقوله: { يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ يُكَوِّبُونَ وَيُكَاوِبُونَ وَأَبْرَاقٌ وَكَأْسٌ مِنْ مَعِينٍ لَا يَصَدَّغُونَ عَنْهَا وَلَا يَتْرَفُونَ وَقَاكِهَةٌ مِمَّا يَتَخَبَّطُونَ وَلَحْمٌ طَيْرٌ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَخُورٌ عَيْنٍ كَأَمْثَالِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ } صدق بذلك فإن هذا هو الذي يجب على المؤمن أن يصدق به كله ويكون هذا من الإيمان الذي هو ركيزة في القلوب. فلذلك نقول إن المؤمنين حقا: هم الذين يقبلون كل ما جاءهم عن الله سبحانه -وتعالى- ويعملون به ولا يتكرونها شيئا من خصال الإيمان إلا عملوا بها؛ هذا هو الذي يجب على المؤمن؛ ولما كان كذلك اهتم علماء الأمة اهتماما بهذا الأمر الذي هو الإيمان وذلك لأن فيه ترسيخ العقيدة في القلب ومتى رسخت في القلب انبعت في الجوارح وعمل الإنسان عمل بما أعطاه الله وبما أمره به؛ منهم الإمام البخاري -رحمه الله- فإنه اهتم بأمر الإيمان وقدمه في أول كتابه بعد المقدمة وذكر أن الأعمال من مسمى الإيمان فهو قال مثلا باب: "قيام ليلة القدر من الإيمان" وأورد فيه حديثنا ثم قال باب: "الجهاد من الإيمان" وأورد فيه حديثنا. باب: "قيام ليلي رمضان من الإيمان" وأورد الدليل باب: "قيام رمضان من الإيمان" وأورد فيه حديثنا؛ وكذلك بقية خصال الأعمال فيقول هنا باب: "الزكاة من الإسلام" -باب- الإسلام خصل من خصال الإيمان أو أن الإسلام والإيمان قد يترادفان إذا ذكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان؛ وإذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام؛ استدلل هاهنا بقوله تعالى: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَنُؤُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } جعل الزكاة من خصال الإيمان وجعلها من الإسلام وجعلها من الدين؛ وهو دليل على أن الدين يشمل بقية أركان الإسلام وأركان الإيمان وغيرها { دِينُ الْقَيِّمَةِ } أي دين الملة القيمة؛ أو دين الحنيفية القيمة؛ منه عبادة الله مخلصين له الدين، (الإخلاص) هو التصفية -يعني- أن دينكم لله وحده خالصا وهو من الدين إقام الصلاة من الدين إيتاء الزكاة من الدين. ثم يقول بعد ذلك: حديثنا إسماعيل وهو ابن أبي أوسين قال: حدثني مالك بن أنس عن عمه أبي سهيل بن مالك؛ مالك هو ابن أنس بن مالك الأصحبي؛ روى هذا الحديث عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه مالك الأصحبي أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول: { جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلى الله عليه وسلم- وأورد فيه حديثنا ثم قال باب: "الجهاد من الإيمان" -يعني- منتشر الرأس كأنه كان مكشوفاً رأسه وكان رأسه شعثا فجاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما أقبل وإذا له دوي يقول طلحة تنسم دوي صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإذا هو يسأل عن الإسلام يسأل عن خصلة من دينه وهو الإسلام. النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر له الصلاة فقال: خمس صلوات في اليوم والليلة فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع؛ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذكر له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الزكاة فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع }؛ ما ذكر طلحة في هذا إلا اثنا من أركان الإسلام الصلاة والزكاة والصيام وذلك لأن طلحة كأنه لم يفقه كلامه كاملا ولم يفقه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذكر هذه بالمعنى { فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلح إن صدق } النبي -صلى الله عليه وسلم- فسر الإسلام في هذا الحديث الصلاة والزكاة والصوم والتزم ذلك الرجل أنه لا ينقص ولكن التزم بأنه لا يزيد؛ وليس المراد أنه لا يتطوع ولكن المراد أنه لا يضيف إليها غيرها ولا يجعل معها سواها فلا يبتدع بدعة الصلوات الخمس فكانه يقول التزم بالخمسة ولا أجعلها سنا ولا يسعها؛ وكذلك التزم بالزكاة ولا أجعلها مغرما. التزم بالصيام ولا أجعله أربعين يوما مثلا ولا أجعله في غير رمضان؛ ولكن لا يلزم أنه لا يتطوع لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أخبره بأن له أن يتطوع؛ لا أن يزيد تطوعا فلا يلزم أنه لا يصلي النوافل ولا يصلي التهجذ ولا يصلي الضحى بل يمكن أنه التزم بذلك كله التزم بالفرائض والتطوع. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- { أفلح إن صدق } -يعني- إذا التزم وأدى ما أمر به وتجنب ما نهى عنه فقد أفلح -يعني- فاز (الفلاح) هو الفوز؛ ففي هذا الحديث أن الإسلام تدخل فيه هذه الأركان؛ قد ثبت أيضًا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- فسره؛ فسره: ...من أدخل بشيء منها فإنه يعتبر قد نقص من إيمانه، نقص شيئا من دينه، فعليه أن يحصر على تكلمة ما عنده وما بقي له من أمر الدين.